## في رثاء الرفيق طنوس دياب
## أحد الرفاق الشيوعيين القدامى

معروف أنّ الرفيق طنوس دياب ومعه عدد من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب قد فُصلوا من الحزب، خلال أزمة ١٩٦٦ – ١٩٦٧، لاعتراضهم على حركة التجديد ولمقاومتهم إياها، ولإنشاء حركة سياسية مناهضة للحزب. وخلال التحضير للمؤتمر السادس للحزب جرت محاولات لإعادة بعض مَنْ كانوا لا يزالون على قيد الحياة إلى صفوف الحزب من خلال تصفية آثار تلك الحقبة، وإدخالهم في عملية تجديد الحزب في المرحلة الجديدة من تاريخه، عشية انهيار الاتحاد السوفياتي التي كانت تشير إليها الصراعات داخل الحزب السوفياتي والدولة السوفياتية. وقد توجت تلك المحاولات التي كُلّفتُ بها من قِبَل قيادة الحزب، في الاجتماعات المتداولة بيني وبين كل من صوايا صوايا وطنوس دياب، بالاتفاق على عودتهم إلى الحزب. واتخذ في المؤتمر السادس (١٩٩٢) قرار بهذا الشأن. لكن كل من صوايا وطنوس سرعان ما غادرا الحياة في الأعوام القليلة التي تلت انعقاد المؤتمر. وكان قد سبقهم بمغادرة الحياة رفيقهم حسن قريطم. كان طنوس قد تقدّم في العمر. وكان صوايا يعاني من مرضٍ عضال.

فيما يلي نص الكلمة المشار إليها في تكريم طنوس.

يا رفيقي طنوس، يا أبا توفيق. جئتُ إليك، اليوم، مع الكثيرين من أصدقائك ومحبيك، لأُسهم في توديعك، ولأقدم لك، باسم رفاقك الشيوعيين من كل الأجيال، وباسم قيادة حزبك، الذي انتميت إليه، وللفكر الذي حمله، ولبرنامجه، ولأهدافه، منذ أوائل الثلاثينات من هذا القرن، أقدم لك تحية من أعماق الوجدان، مفعمة بالحب والتقدير والوفاء.

واسمح لي في هذه اللحظات، أن أذكرك، أنت الذي لا تنسى، وأن أذكر الذين لا يعرفون، أو الذين يغلبهم النسيان، أذكر بشيء من التاريخ، تاريخك وتاريخ هذه الحركة التي كنتَ فيها من الأوائل في العطاء والتضحية والبذل، من دون حساب. وهي الحركة التي حملت لواء الاشتراكية، والشيوعية، منذ مطالع عشرينيات القرن الماضي، وتستمر في حملها، من دون تردد، ومن دون انكفاء، أذكر بأنّ لحركاتنا هذه، مثل سائر الحركات في تاريخ الشعوب، الفكرية منها والسياسية، روّاداً يشقّون الطريق من أجل أن تعبر منها إلى المستقبل أجيال عديدة، جيلاً بعد جيل، في أنساق

مختلفة، فتبني، وتُغني، وتكمل، وتغيّر، وتجدّد، في حركةٍ لا تنتهي. ولا يتعب فيها المناضلون والمفكّرون ولا يكلّون، ولا تخور قواهم.

ونشعر نحن الشيوعيين اللبنانيين، أنّ حزبنا، الذي اشتركنا مع رفاقنا السوريين في بنائه، في العشرينات من القرن الماضي، وأسهمنا معهم في تطويره، في الثلاثينات والأربعينات، وكان رفيقنا طنوس واحداً من هؤلاء البناة الأوائل، حزبنا هذا لم يكن وليد لحظة تاريخية معيّنة، بل كان امتداداً طبيعياً، واستكمالاً إبداعياً، في الشروط التاريخية لحركة النهضة تلك، ولنشاط وإبداع روّادها اللبنانيين، من أبناء هذا الجيل اللبناني، ومن الروّاد الفلسطينيين والسوريين والمصريين، والروّاد من سائر بلدان العرب. وبهذا المعنى فإنّ الشيوعيين الأوائل، الذين كانوا روّاد التأسيس، وروّاد الدعوة للأفكار ولنشرها ولتعميمها، يشكّلون بالنسبة إلينا، نحن الأجيال التي جاءت فيما بعد، سنديانة حمراء شامخة تمتد جذورها عميقاً في الأرض، ويتسع جذعها ويرتفع، حتى ليكاد يستعصي على الإحصاء. وتطال فروعها السماء. وتستمر أغصانها وأوراقها دائمة الخضرة، وتزداد ثمارها، بفعل النضوج المتواصل، ذكاءً وعطراً وحلاوة.

بالأمس ودّعنا رفيقنا يوسف خطار الحلو، أبا وضاح. وهو واحد من جذور هذه السنديانة الحمراء الشامخة. وأعلنّا حزننا العميق على فراقه، واعتزازنا به، وبتاريخه. وها نحن، اليوم، نقف لنكرّم رفيقنا طنوس دياب، أبا توفيق، أحد هذه الجذور، الذي رحل عنّا منذ أربعين يوماً، نكرّم فيه الإنسان الصارم في تمسُّكه بالقِيَم، والمواطن اللبناني المتمّم واجبات الانتماء إلى الشعب والوطن، والمناضل من جيل الروّاد، الذي أمضى نيفاً وستين عاماً في نفس الموقع، شيوعياً على سنّ الرمح. لم تهزّه أعاصير الدنيا، ولا أهوال الأيام الصعبة، سواء منها تلك التي قضاها داخل الجدران الضيقة في عتمة العمل السري، أم تلك التي رفع فيها رايته الشيوعية الحمراء، بشجاعة الشجعان، مع الكادحين من أبناء شعبنا، شاهراً سلاح الموقف، والإيمان بقضية عادلة، في وجه صانعي الظلم والظلام، والقهر والحرمان، وصانعي كل صنوف العسف والعدوان.

طنوس دياب هو واحد من أولئك الذين كلّما تذكّرناهم، وذكراهم محفورة دائماً في وجداننا، أو اجتمعنا لتكريمهم في المناسبات، فإنّما نكون، بذلك، في موقع المتلقي لدروسٍ عديدة من تجربة كلّها غنى، توحي لنا بالاعتزاز، وتملؤنا ثقة بالمستقبل. فبفضل طنوس وأمثاله من أبناء جيله من الرفاق انتشرت الأفكار الثورية الجديدة، أفكار التحرر والتقدم في أنطلياس. وتجسّدت تلك الأفكار في حركة حزبنا النضالية، وفي التضحيات التي رافقتها، والتي كان شقيق أبي توفيق، الرفيق حبيب ورفيقه الرفيق نمر الرموز، أول شهيدين من شهدائها.

لقد مرّت، خلال الأعوام الأخيرة، أعاصير كثيرة وزلازل لا مثيل لها في تاريخ حركتنا. وترافقت هذه الزلازل بهزائم وخيبات، سابقة عليها، أو ناتجة عنها، في لبنان، وفي الوطن العربي. لكن طنوس، الذي هو من معدن هذا الحزب ومن تراثه، لم يهتز، ولم يدخل اليأس إلى قلبه وفكره رغم المعاناة التي واجهها في لحظة صعبة من حياته في الحزب، وخارج صفوفه. بل هو ظلّ ثابتاً في الموقع، برغم كل الظلام الذي خيّم على النفوس والأفئدة والأحلام، عامراً بالثقة بمستقبل القضية التي وهبها كل حياته، قضية الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية، لشعبه وبلاده، وللبشرية كلّها، قضية الاشتراكية.

وإنّ أهم وأعظم ما يمكن أن يتعلّمه المناضلون الشباب، في أيامنا، من هؤلاء الروّاد، هو، بالتحديد، هذه الثقة بأنّ حركة التاريخ، حتى ولو توقفت قليلاً، أو عادت قليلاً إلى الوراء، فهي ستبقى محافظة على تقدمها في الاتجاه الصحيح، لا كحتمية تاريخية عفوية ساذجة، بل كإرادة إنسانية واعية، عامرة بالمعرفة، مفتوحة على كل جديد، مسهمة في صنعه، بصورة دائمة.

ستظل يا رفيقنا أبا توفيق، أسوةً بالذين سبقوك في الرحيل، والذين يستمرون في العطاء، أمدّ الله بعمرهم، من أبناء أنطلياس ومن أبناء هذا الجبل الأشمّ، عنوان تقدير ومحبّة واعتزاز واستلهام. أمّا أنا فلن أنسى صداقة ورفقة تمتد إلى أكثر من ثلاثين عاماً، مع الرفيق طنوس. ولن أنسى، على وجه التحديد، أحاديث هي ملء الفكر والوجدان، استمرّت ساعات وأياماً، بيننا، في بلدته بصاليم بالذات، خلال السنوات الأربع الأخيرة. وهي كانت أحاديث أقرب إلى المراجعة الفكرية والسياسية وحتى التنظيمية لحقبة سابقة من تاريخ الحزب. وكانت تلك الأحاديث ترمي إلى تصحيح أخطاء ماضية يتحمّل الجميع المسؤولية عنها وتقويمها، كلّ بحسب موقعه، وانتهت تلك المراجعة بعودة الجميع إلى كنف الحزب والاستمرار في مهمة بنائه وتطويره.